الباب الرابع

في سياق حجج الطائفة التي قالت : ليست جنة الخلد ، وإنما هي جنة في الأرض .

قالوا : هذا قول تكثر الدلائل الموجبة للقول به ، فنذكر بعضها .

قالوا : قد أخبر الله سبحانه على لسان جميع رسله : أن جنة الخلد إنما يكون الدخول إليها يوم القيامة ، ولم يأت زمن دخولها بعد ، وقد وصفها الله سبحانه وتعالى لنا في كتابه بصفاتها ، ومحال أن يصف الله سبحانه وتعالى شيئاً بصفة ، ثم يكون ذلك الشيء بغير تلك الصفة التي وصفها .

قالوا : فوجدنا الله تعالى وصف الجنة التي أعدت للمتقين بأنها ﴿ **دارَ المُقَامة** ﴾ [فاطر : ٣٥] . فمن دخلها أقام بها ، ولم يقم آدمُ بالجنة التي دخلها .

ووصفها بأنها ﴿ **جَنَّةُ الخُلْدِ** ﴾ [الفرقان : ١٥] . وآدم لم يخلد فيها .

ووصفها بأنها : دار ثواب وجزاء ، لا دار تكليف وأمر ونهي .

ووصفها بأنها : دار سلامة مطلقة ، لا دار ابتلاء وامتحان ، وقد ابتلي فيها آدم بأعظم الابتلاء .

ووصفها بأنها : دار لا يُعصى الله فيها أبداً ، وقد عصى آدم ربّه في جنته التي دخلها .

ووصفها بأنها : ليست دار خوف ولا حَزَن ، وقد حصل للأبوين فيها من الخوف والحزن ما حصل .

وسمّاها : ﴿ **دار السَّلام** ﴾ [الأنعام : ١٢٧] ولم يسلم فيها الأبوان من الفتنة .

و﴿ دار القرار ﴾ [غافر : ٣٩] . ولم يستقرا فيها.

وقال في داخليها : ﴿ وما هُمْ منها بمُخرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨].

وقال: ﴿لا يَمَسُّهم فيها نَصَبٌ﴾ [الحجر: ٤٨]. وقد ندّ فيها آدم هارباً فاراً، وطفق يخصف ورق الجنة على نفسه، وهذا النصب بعينه.

وأخبر أنه : ﴿ لا لغوٌ فيها ولا تأْثِيم ﴾ [الطور : ٢٣] . وقد سمع فيها آدم لغو إبليس وإثمه .

وأخبر أنه لا يسمع فيها لغو ولا كذاب ، وقد سمع فيها آدم [عليه السلام] كذبَ إبليس .

وقد سمّاها الله سبحانه وتعالى : ﴿ مقعَد صِدْقٍ ﴾ [القمر : ٥٥] ، وقد كذب فيها إبليس ، وحلف على كذبه .

وقال تعالى للملائكة : ﴿ إني جاعلٌ في الأرضِ خليفةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ولم يقل : إني جاعل في جنة المأوى . فقالت الملائكة : ﴿ أتجعلُ فيها من يفسدُ فيها ويسفكُ الدماءَ؟﴾ [البقرة: ٣٠] ومحال أن يكون هذا في جنة المأوى.

وقد أخبر الله تعالى عن إبليس أنه قال لآدم: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ على شجرةِ الخلْدِ ومُلكٍ لا يَبلَى ﴾ [طه : ١٢٠] . فإن الله سبحانه وتعالى قد أسكن آدم جنة الخلد والملك الذي لا يبلى . فكيف لم يردّ عليه ويقول له : كيف تدلني على شيء أنا فيه ، وقد أعطيته ، ولم يكن الله سبحانه وتعالى قد أخبر آدم إذ أسكنه الجنة أنه فيها من الخالدين ، ولو علم أنها دار الخلد لما ركن إلى قول إبليس ، ولا مال إلى نصيحته ، ولكنه لما كان في غير دار خلود غرّه بما أطمعه فيه من الخلد .

قالوا : ولو كان آدم أسكن جنة الخلد ، وهي دار القُدْس التي لا يسكنها إلا طاهر مقدّس ، فكيف توصل إليها إبليس الرجس النجس المذموم المدحور ، حتى فتن فيها آدم [عليه السلام] ووسوس له ؟ وهذه الوسوسة إما أن تكون في قلبه ، وإما أن تكون في أذنه ، وعلى التقديرين ، فكيف توصل

اللعين إلى دخول دار المتقين. وأيضاً فبعد أن قيل له : ﴿ اهبطْ مِنْها فَمَا يكونُ لكَ أنْ تَتَكَبرَ فِيهَا ﴾ [الأعراف : ١٣] ، أيفسح له أن يرقى إلى جنة المأوى فوق السماء السابعة بعد السّخط عليه ، والإبعاد له ، والزجر والطرد بعتوه واستكباره ، وهل هذا يلائم قوله : ﴿ فَما يكونُ لكَ أن تَتَكَبَّرَ فيها ﴾ فإن كانت مخاطبته لآدم بما خاطبه به وقاسمه عليه ليست تكبراً ، فما التكبر بعد هذا ؟ .

فإن قلتم : فلعل وسوسته وصلت إلى الأبوين ، وهو في الأرض ، وهما فوق السماء في عليّين ، فهذا غير معقول لغة ولا حساً ولا عرفاً ، وإن زعمتم أنه دخل في بطن الحية حتى أوصل إليهما الوسوسة فأبطل وأبطل ، إذ كيف يرتقي بعد الإهباط إلى أن يدخل الجنة ، ولو في بطن الحية ؟

وإذا قلتم : إنه دخل في قلوبهما ، ووسوس إليهما ، فالمحذور قائم ، وأيضاً فإن الله سبحانه وتعالى حكى مخاطبته لهما كلاماً سمعاه شِفاهاً ، فقال : ﴿ مَا نَهاكُما رَبُّكما عنْ هذِهِ الشَّجرةِ ﴾ [الأعراف : ٢٠] وهذا دليل على مشاهدته لهما وللشجرة ، ولما كان آدم خارجاً من الجنة ، وغير ساكن فيها قال الله تعالى له : ﴿ أَلَمْ أنهَكُما عَنْ تِلْكُما الشَّجرةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] ولم يقل عن هذه الشجرة ، فعندما قال لهما : ﴿ ما نَهاكُما رَبُّكُما عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٠] لما أطمعهما في ملكها ، والخلود في مقرها أتى باسم الإشارة بلفظ الحضور تقريباً لها وإحضاراً لها عندهما ، وربهما تعالى قال لهما : ﴿ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُما الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] ، ولما أراد إخراجهما منها ، فأتى باسم الإشارة بلفظ البُعد والغيبة ، كأنهما لم يبق لهما من الجنة حتى ولا مشاهدة الشجرة التي نهيا عنها ، وأيضاً فإنه سبحانه قال : ﴿ إليهِ يَصْعَدُ الكَلِمُ الطيِّبُ ﴾ [فاطر : ١٠] ووسوسة اللعين من أخبث الكَلِم ، فلا تصعد إلى محل القدس .

قال منذر : وقد روي عن النبي ﷺ : «أن آدم عليه السلام نام في جنته »[1] وجنة الخلد لا نوم فيها بالنصّ ، وإجماع المسلمين ، فإن النبي ﷺ

---

(١) ذكره السيوطي في « الدرر المنثور » ١/٥٢ . ونسبه لمجاهد ، موقوفاً عليه .

سئل : أينامُ أهلُ الجنةِ ؟ قال : « لا ، النومُ أخوُ الموتِ ، والنومُ وفاةٌ »(١) وقد نطق به القرآن ، والوفاة تقلب حال ، ودار السلام مسلمة من تقلب الأحـوال ، والنائم ميت أو كالميت .

قلت : الحديث الذي أشار إليه المعروف أنه موقوف من رواية ابن أبي نجيح ، عن مجاهد قال : خلقت حواءُ من قصيرى آدم وهو نائم(٢) .

وقال أسباط : عن السـدي : أُسكن آدم [عليه السـلام] الجنة ، وكـان يمشي فيها وَحِشَاً ليس له زوج يسكن إليها ، فنام نومةً ، فاستيقظ فإذا عند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه ، فسألهـا ما أنت ؟ قـالت : امرأة قـال : ولِمَ خلقت ؟ قالت : لتسكنَ إليَّ .

وقـال ابن إسحاق عن ابن عبـاس : ألقى [الله] على آدم عليه السـلام السِّنَةَ ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ، ولأم مكانه لحماً ، وآدم نائم لم يهب من نومته ، حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء ، فسوّاها امرأة يسكن إليها ، فلما كشف عنه السِّنَةَ ، وهبَّ من نـومته رآهـا إلى جنبه فقـال : لحمي ودمي وزوجتي ، فسكن إليها .

قالوا : ولا نزاع أن الله سبحانه وتعالى خلق آدم في الأرض ، ولم يذكر في موضع واحد أصلاً أنه نقله إلى السماء بعد ذلك ، ولو كان قد نقله بعد ذلك إلى السماء لكان هذا أولى بالذكر ، لأنه من أعظم الآيـات ، ومن أعظم النعم عليه ، فإنه كان معراجاً ببدنه وروحه من الأرض إلى فوق السماوات .

قالوا : وكيف ينقله سبحانه ويسكنه فوق السماء ، وقد أخبر ملائكتـه أنه **جاعله في الأرض خليفة، وكيف يسكنه دار الخلد التي من دخلها يخلد فيها،** ولا يخرج منها ؟ قال تعالى : ﴿ **ومـا هـمْ منها بمخْـرجينَ** ﴾ [الحجر : ٤٨] قالوا : ولو لم يكن معنا في المسألة إلا أن الله سبحانه أهبط إبليس من السماء

---

(١) أخرج نحوه الطبراني في « الأوسط » كما في « المجمع » ١٠/٤١٥ ، وأحمد في « الزهد » ص ١٥ ، وأبو نعيم في « الحلية » ٧/٩٠ و« صفة الجنة » (٩٠) .

(٢) تتمة الحديث رقم (١) ، وهو موقوف من قول مجاهد . والمراد بقصيراه : أسفل أضلاعـه ، أو آخر ضلع في الجنب «القاموس المحيط».

حين امتنع من السجود لآدم [عليه السلام] ، وهذا أمر تكوين لا يمكن وقوع خلافه ، ثم أدخل آدم [عليه السلام] الجنة بعد هذا ، فإن الأمر بالسجود كان عقب خلقه من غير فصل ، فلو كانت الجنة فوق السماوات لم يكن لإبليس سبيل إلى صعوده إليها ، وقد أهبط منها .

وأما تلك التقادير التي قدرتموها فتكلفات ظاهرة ، كقول من قال : يجوز أن يصعد إليها صعوداً عارضاً لا مستقراً ، وقول من قال : أدخلته الحية ، وقول من قال : دخل في أجوافها ، وقول من قال : يجوز أن تصل وسوسته إليهما وهو في الأرض ، وهما فوق السماء ، ولا يخفى ما في ذلك من التعسف الشديد ، والتكلف البعيد ، وهذا بخلاف قولنا . فإنه سبحانه لما أهبطه من ملكوت السماء حيث لم يسجد لادم [عليه السلام] أشرِبَ عداوته ، فلما أسكنه جنته ، حسده عدوه ، وسعى بكيده وغروره في إخراجه منها . والله أعلم .

قالوا : ومما يدلّ على أن جنة آدم لم تكن جنة الخلد التي وعد المتقون : أن الله سبحانه لما خلقه أعلمه أن لعمره أجلاً ينتهي إليه ، وأنه لم يخلقه للبقاء ، كما روى الترمذي في « جامعه » من حديث أبي هريرة قال : قال رسول رسول الله ﷺ : « لما خَلَقَ الله آدم [عليه السلام] ونَفَخَ فيه الرُّوحَ عَطَسَ،فقال : الحمدُ لله [فحمدَ الله] بإذنه . فقال ربُّه : يرحمكَ الله يا آدمُ ، اذهبْ إلى أولئكَ الملائكةِ إلى ملأ منهم جلوس فقلْ : السلام عليكم [قالوا : وعليك السلام] ، ثم رجع إلى ربِّه فقال : إنَّ هذه تحيتكَ وتحية بنيكَ بينهم فقال الله له ويداه مقبوضتانِ : اختر أيهما شئت ، فقال : اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمينٌ مباركةٌ ، ثم بسطها فإذا فيها آدمُ وذريته فقال: يا رب ما هؤلاء؟ قال : هؤلاء ذريتُكَ ، فإذا كلُّ إنسان مكتوب عمره بين عينيه ، فإذا فيهم رجل أضوؤهم ، أو من أضوئهم قال :يا ربِّ من هذا ؟قال: هذا ابنُكَ داود وقد كتبتُ لَهُ عُمُر أربعينَ سنةً . قال : يا ربِّ زِدْ في عمره ، قال: ذلك الذي كتبتُ له . قال : أي ربِّ ، فإني قد جعلتُ له من عمري ستين سنةً . قال : أنت و ذاك ، قال : ثم أسكنَ الجنةَ ما شاء الله ، ثم أهبط منها . فكان آدم [عليه السلام] يعدُّ لنفسه : فأتاه مَلَكُ الموتِ فقال له آدم : قد عجلتَ قد كتبت لي ألفُ سنةٍ . قال بلى ،

ولكنَّكَ جعلتَ لابنك داودَ ستين سنةً ، فجحَدَ فجحدتْ ذريتُه ، ونسي فنسيت ذريتُه ، قال فمن يومئذ أمرَ بالكتاب والشهودِ »[1] قال : هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه ، وقد روي من غير وجه عن أبي هريرة .

قالوا : فهذا صريح في أن آدم عليه السلام لم يخلق في دار البقاء التي لا يموت من دخلها ، وإنما خلق في دار الفناء التي جعل الله تعالى لها ولسكانها أجلاً معلوماً ، وفيها أسكن .

فإن قيل: فإذا كان [آدم عليه السلام] قد علم أن له عمراً مقدراً، وأجلاً ينتهي إليه، وأنه ليس من الخالدين، فكيف لم يعلم كذبَ إبليس في قوله: ﴿هل أدُلك على شَجرَةِ الخُلْدِ﴾ [طه: ١٢٠]؟ وقوله: ﴿أو تكونا من الخالدين﴾ [الأعراف: ٢٠].

فالجواب من وجهين :

أحدهما : أن الخلد لا يستلزم الدوام والبقاء ، بل هو المكث الطويل كما سيأتي .

الثاني : أن إبليس لما حلف له ، وغرَّه وأطمعه في الخلود نسي ما قدر له من عمره .

قالوا : وأيضاً فمن المعلوم الذي لا ينازع فيه مسلم أن الله سبحانه خلق آدم [عليه السلام] من تربة هذه الأرض، وأخبر أنه خلقه ﴿ من سُلَالَةٍ مِنْ طِيْنٍ ﴾ [المؤمنون : ١٢] وأنه خلقه ﴿ من صَلْصَالٍ من حَمَأٍ مَسْنُون ﴾ [الحجر : ٢٦] . فقيل : هو الذي له صلصلة ليبسه . وقيل : هو الذي قد تغيرت رائحته من قولهم : صل اللّحم إذا تغير . والحَمأُ : الطين الأسود

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٦٨) في التعبير : باب (٩٥) . والحاكم ١/٦٤ وصححه ، ووافقه الذهبي .

وهذا الحديث يعد من أحاديث الصفات المتعلقة بالباري عز وجل ونحن نسلّم بها ، ولا نفسرها ، مع علمنا أن الله عز وجل : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾ . فقوله في الحديث : « يداه مقبوضتان » نقول الله أعلم بذلك على الشكل الذي يليق بذاته سبحانه وتعالى من غير كيف ولا تشبيه .

المتغير ، والمسنون : المصبوب ، وهذه كلها أطوار للتراب الذي هو مبدؤه الأول ، كما أخبر عن أطوار خلق الذرية ﴿ مِن نُّطْفَةٍ ، ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ، ثمّ من مُضْغَةٍ ﴾ [الحج : ٥] ولم يخبر سبحانه [وتعالى] أنه رفعه من الأرض إلى فوق السماوات ، لا قبل التخليق ولا بعده ، فأين الدليل الدال على إصعاد مادته ، أو إصعاده هو بعد خلقه ، وهذا ما لا دليل لكم عليه ، ولا هو لازم من لوازم ما أخبر الله به ؟

قالوا : ومن المعلوم أن ما فوق السماوات ليس بمكان للطين الأرضي المتغير الرائحة الذي قد أنتن من تغيره ، وإنما محل هذا الأرض التي هي محل المتغيرات الفاسدات ، وأما ما فوق الأفلاك فلا يلحقه تغير ولا نتن ولا فساد ولا استحالة ، فهذا أمر لا يرتاب فيه العقلاء .

قالوا : وقد قال الله تعالى : ﴿ وأَمَّا الذينَ سُعِدُوا ففي الجنةِ خالدينَ فيها ما دامتِ السَّماواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ ربُّكَ عطاءً غيرَ مَجذُوذٍ ﴾ [هود : ١٠٨] ، فأخبر سبحانه أن عطاء جنة الخلد غير مجذوذ . قالوا : فإذا جمع ما أخبر الله سبحانه به من أنه خلقه من الأرض ، وجعله خليفة في الأرض ، وأن إبليس وسوس إليه في مكانه الذي أسكنه فيه ، بعد أن أهبطه من السماء بامتناعه من السجود له ، وأنه أخبر ملائكته أنه ﴿ جَاعلٌ في الأرضِ خَلِيفةً ﴾ [البقرة : ٣٠] ، وأن دار الخلد : دار جزاء وثواب على الامتحان والتكاليف ، وأنها لا لغوٌ فيها ولا تأثيمٌ ولا كذّاب ، وأن من دخلها لا يخرج منها ، ولا ييأس ولا يحزن ، ولا يخاف ولا ينام ، وأن الله حرمها على الكافرين ، وإبليس رأس الكفر ، فإذا جمع ذلك بعضه إلى بعض ، وفكر فيه المنصف الذي رفع له علم الدليل ، فشمّر إليه ، وربأ بنفسه عن حضيضِ التقليد ، تبين له الصوابُ . والله الموفق .

قالوا : ولو لم يكن في هذه المسألة إلا أن الجنة ليست دار تكليف ، وقد كلّف الله سبحانه الأبوين بنهيهما عن الأكل من الشجرة ، فدلَّ على أنها دارُ تكليف لا جزاء وخلد . فهذا أيضاً بعض ما احتجت به هذه الفرقة على قولها . والله أعلم .

قلنا : والأدلة التي ذكرناها دلت على أن جنة آدم عليه السلام في الأرض ، فلذلك صرنا إلى موجبها ، إذ لا يجوز تعطيل دلالة الدليل الصحيح .

وأما استدلالكم بأثر أبي موسى : أن الله أخرج آدم [عليه السلام] من الجنة وزوده من ثمارها . فليس فيه زيادة على ما دلّ عليه القرآن ، إلا تزوده منها ، وهذا لا يقتضي أن تكون جنة الخلد .

وقولكم : إن هذه تتغير ، وتلك لا تتغير ، فمن أين لكم أن الجنة التي أسكنها آدم كان التغير يعرض لثمارها ، كما يعرض لهذه الثمار ، وقد ثبت في الحديث الصحيح عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال : « لولا بنو إسرائيل لم يَخْنَز اللَّحم »[1] أي : لم يتغيَّر ولم ينتن . وقد أبقى الله سبحانه وتعالى في هذا العالم طعام العزيزِ وشَرابَهُ مئة سنة لم يتغيرْ.

وأما قولكم : إن الله سبحانه وتعالى ضمن لآدم عليه السلام إن تاب أن يعيده إلى الجنة . فلا ريب أن الأمر كذلك ، ولكن ليس يعلم أن الضمان إنما يتناول عوده إلى تلك الجنة بعينها ، بل إذا أعاده إلى جنة الخلد ، فقد وفَّى سبحانه بضمانه حقَّ الوفاء ، ولفظ العود لا يستلزم الرجوع إلى عين الحالة الأولى ، ولا زمانها ولا مكانها ، بل ولا إلى نظيرها كما قال شعيب لقومه : **﴿ قدِ افترينا عَلىٰ الله كَذِباً إنْ عُدْنا في مِلَّتكُم بعد إذْ نَجَّانا الله مِنها وما يكونُ لنا أن نَعُودَ فيها إلاَّ أنْ يَشَاءَ الله ربُّنا﴾** [الأعراف: ٨٩]، وقد جعل الله سبحانه المظاهِرَ[2] عائداً بإرادته الوطء ثانياً ، أو بنفس الوطء ، أو بالإمساك ، وكل منها غير الأول لا عينه ، فهذا ما أجابت به هذه الطائفة لمن نازعها .

---

(١) أخرجه مسلم (٦٣) في الرضاع : باب (١٩) لولا حواء لم تخن أنثى زوجها .

(٢) المظاهر: هو الذي يقول لزوجته أنت علي كظهر أمي.